

مدخل إلى أدبية النص القرآني: الأدب، والأدبية، والنظم، والبلاغة، والإعجاز والشعرية

تمهيد

تتصل دراسة أدبية النص القرآني بعدة مصطلحات، أهمها: الأدب، والأدبية، والنظم، والبلاغة، والإعجاز. وهذه المصطلحات متقاربة، لكنها ليست مترادفة؛ لأن لكل واحد منها مفهوماً ووظيفة خاصة في تحليل النص القرآني والكشف عن خصائصه التعبيرية.

أولاً: مفهوم الأدب

دلّ الأدب في أصل استعماله اللغوي على الدعوة إلى الطعام، ثم انتقل إلى معنى التهذيب والتربية وحسن الخلق، وبعد ذلك اتسعت دلالاته لتشمل المعارف التي تهذب الإنسان وتثقف عقله ولسانه.

أما في الاصطلاح الحديث، فالأدب هو الكلام الجميل المؤثر الذي يعبر عن فكرة أو عاطفة أو تجربة في صياغة فنية متميزة. ولذلك لا يُعدّ كل كلام أدباً؛ لأن الكلام الاعتيادي قد يكتفي بنقل المعلومة، في حين يجعل النص الأدبي المتلقي يشعر ويتخيل ويتأمل.

ويتضح الفرق بين الكلام المباشر والتعبير الفني عند المقارنة بين قولنا: كثر الشيب في رأسه، وقوله تعالى:

{وَأَشْتَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا} {مريم: 4}.

فالعبارة الأولى تنقل معلومة مباشرة، أما التعبير القرآني فيرسم صورة حية للشيب كأنه نار انتشرت في الرأس واستولت على جوانبه.

ودراسة أدبية النص القرآني لا تعني إدخال القرآن الكريم في جنس الأدب البشري؛ لأن القرآن كلام الله تعالى، وليس شعراً ولا نثراً بشرياً. وإنما تعني الكشف عن خصائصه الفنية والبيانية والجمالية، وبيان تأثيره في النفس، وإظهار جانب من جوانب إعجازه.

ثانيًا: مفهوم الأدبية

الأدبية هي مجموعة الخصائص اللغوية والفنية والجمالية التي تميز النص من الكلام الاعتيادي المباشر، وتجعله نصًا مؤثرًا متعدد الدلالات، لا مجرد كلام يؤدي معلومة.

وتظهر الأدبية في حسن اختيار الألفاظ، ودقة بناء الجمل، والتصوير، والتشبيه، والاستعارة، والمجاز، والإيقاع، والتكرار، والتقديم والتأخير، والحذف والذكر، والتعريف والتذكير، والتناسق بين أجزاء النص.

وللكشف عن أدبية النص نسأل:

لماذا اختيرت هذه المفردة دون غيرها؟

ولماذا قُدمت كلمة وأُخرت أخرى؟

وما الصورة التي يرسمها التعبير؟

وما الأثر الذي يتركه في المتلقي؟

وفي النص القرآني لا تنفصل الأدبية عن الهداية؛ لأن الجمال التعبيري ليس زينة لفظية، وإنما يسهم في بناء المعنى وإيصاله إلى القلب والعقل. فاختيار المفردة، وترتيب الجملة، والصورة، والإيقاع، كلها تؤدي وظائف دلالية ونفسية وتربوية وعقدية.

الأدبية هي البحث عن العنصر المميز في النص

تهتم دراسة الأدبية بالخصائص التي تميز اللغة الأدبية من الاستعمال اللغوي الاعتيادي. فاللغة الاعتيادية تهدف غالبًا إلى إيصال المعلومة مباشرة، أما اللغة الأدبية فتجعل طريقة تقديم المعلومة جزءًا من المعنى نفسه.

فعندما نقول: اقترب الصباح، فإننا ننقل خبرًا واضحًا، أما عندما نقول: تنفّس الصباح، فإننا لا ننقل الخبر فقط، بل نصنع صورة تجعل الصباح كائنًا حيًا يتنفس. وهكذا يصبح اختيار التعبير ذا قيمة دلالية وفنية.

ولذلك لا تنفصل الأدبية عن اللغة؛ لأنها تتحقق من خلال طريقة استعمالها، واختيار ألفاظها، وتركيب جملها، وبناء صورها.

ويتضح ذلك في قوله تعالى:

{وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ} {الإسراء: 24}.

المقصود هو التواضع للوالدين والرفق بهما، لكن النص القرآني لم يقل: تواضع لهما، بل صوّر الإنسان كأنه طائر يخفض جناحه رحمةً وتواضعًا. وبذلك تحول المعنى الأخلاقي المجرد إلى مشهد بصري محسوس، وهذه إحدى مظاهر الأدبية.

ويمكن تطبيق ذلك على قوله تعالى:

{وَالصُّبْحَ إِذَا تَنَفَّسَ} {التكوير: 18}.

لو كان المقصود مجرد الإخبار، لأمكن أن يقال: والصبح إذا ظهر. لكن التعبير القرآني اختار الفعل {تَنَفَّسَ}، فجعل الصبح كائنًا حيًا يتنفس، وصوّر خروج الضوء شيئًا فشيئًا بصورة خروج النَّفْس.

ولا تكتفي دراسة أدبية هذا التعبير ببيان معنى الآية، بل تسأل: ماذا أضاف الفعل {تَنَفَّسَ} إلى المعنى؟ وكيف صنع صورة الصبح؟ ولماذا كان هذا التعبير أبلغ من التعبير المباشر؟

ثالثاً: نشأة مصطلح الأدبية

لم يكن مصطلح الأدبية بصورته النقدية الحديثة شائعاً عند النقاد العرب القدماء، وإنما برز في الدراسات النقدية الحديثة، ولا سيما عند أصحاب المدرسة الشكلائية الروسية في أوائل القرن العشرين.

ومن أشهر من ارتبط اسمه بهذا المفهوم رومان ياكبسون، الذي رأى أن موضوع علم الأدب هو الأدبية؛ أي الخصائص التي تجعل العمل الكلامي عملاً أدبياً.

ومع حداثة المصطلح، فإن مضمونه كان حاضراً في التراث العربي تحت مصطلحات أخرى، مثل: البلاغة، والبيان، والفصاحة، والنظم، والبديع، والمجاز، والتخييل، وإعجاز القرآن.

فقد بحث القدماء في أسباب جمال التعبير، وسر تفاضل الكلام، وأثر ترتيب الكلمات في المعنى، وأسباب تأثير صياغة معينة في النفس أكثر من غيرها. وهذه القضايا تمثل جوهر مفهوم الأدبية في الدراسات الحديثة.

المرحلة الأولى : مضمون الأدبية عند القدماء

عرف علماء العربية والبلاغة والنقد مضمون الأدبية، وإن لم يستخدموا المصطلح الحديث نفسه. وقد ظهر ذلك في جهود عدد من العلماء، مرتبين بحسب وفياتهم:

الجاحظ {ت 255هـ}: اهتم بالبيان، وملاءمة اللفظ للمعنى، وتأثير الكلام في المتلقي.

قدامة بن جعفر {ت 337هـ}: اهتم بنقد الشعر وتحديد عناصره، وبحث في اللفظ والمعنى والوزن والقافية وجودة التأليف بينها.

الرماني {ت 384هـ}: تناول بلاغة القرآن ووجوه إعجازه، ودرس التشبيه والاستعارة والإيجاز وغير ذلك من الأساليب.

الخطابي {ت 388هـ}: بحث في بيان إعجاز القرآن، وربط الإعجاز بدقة اختيار الألفاظ، وجودة النظم، وقوة التأثير في النفس.

الباقلائي {ت 403هـ}: درس إعجاز القرآن من جهة نظمه وأسلوبه، وبيّن اختلافه عن أساليب الشعر والنثر البشري.

عبد القاهر الجرجاني {ت 471هـ}: جعل النظم أساس بلاغة الكلام، وبيّن أن جمال النص لا يرجع إلى الألفاظ منفردة، وإنما إلى العلاقات النحوية والدلالية التي تنشأ بينها داخل التركيب، ولا سيما في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة.

الزمخشري {ت 538هـ}: طبّق التحليل اللغوي والنحوي والبلاغي على القرآن الكريم في كتابه الكشف، وكشف أثر اختيار الألفاظ وترتيبها في بناء المعنى.

المرحلة الثانية في مصطلح الأدبية: مضمون الأدبية في نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني

تقترب نظرية النظم خاصةً من مفهوم الأدبية الحديث؛ لأن كليهما يهتم بالعلاقات الداخلية بين عناصر النص. فاللفظة لا تكون بليغة في ذاتها، وإنما تظهر بلاغتها بسبب موضعها في التركيب، وصلتها بما قبلها وما بعدها، وموافقتها للمعنى المقصود.

النظم عند عبد القاهر الجرجاني {ت 471هـ} لا يعني مجرد ترتيب الكلمات بعضها بعد بعض، وإنما يعني بناء العلاقات النحوية والدلالية بينها بحسب المعنى المقصود. ولذلك يمكن أن يؤدي تغيير ترتيب الكلمات إلى تغيير الدلالة ودرجة الاهتمام.

قال تعالى:

{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} {الفاتحة: 5}.

الترتيب الاعتيادي للجملة هو: نعبدك ونستعين بك، لكن القرآن قدّم المفعول به {إِيَّاكَ} لإفادة الاختصاص؛ أي نعبدك وحدك، ونستعين بك وحدك. وهكذا تكشف دراسة النظم أن موضع الكلمة في الجملة يشارك في إنتاج المعنى، وهو من مظاهر أدبية النص.

المرحلة الثالثة من إنشاء مصطلح الأدبية وهي يمكن اجمالها في اتجاهين

الاتجاه العام : الانتقال من دراسة الأديب إلى دراسة النص

شهد النقد الحديث تحولاً من الاهتمام بحياة الأديب وظروفه النفسية والاجتماعية والتاريخية إلى دراسة النص نفسه، من حيث لغته وبنائه وطريقة صياغته والعلاقات بين كلماته وجمله. وأسهم هذا التحول في ظهور اتجاهات مثل الشكلانية الروسية والبنوية والأسلوبية، وفي تطور مفهوم الأدبية.

كانت الدراسة الخارجية تفسر العمل الأدبي بالرجوع إلى حياة صاحبه وعصره ودوافعه. أما الدراسة النصية فتتوغل إلى العمل بعد إنتاجه بوصفه نصاً قائماً بذاته، وتسأل عن اختيار ألفاظه، وترتيبها، وصوره، وإيقاعه، والعلاقات بين أجزائه.

ويتضح الفرق في دراسة قول المتنبي:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

وتأتي على قدر الكرام المكارم

فالدراسة الخارجية (النهج التاريخي الوصفي) تبحث في زمن نظم البيت ومناسبته وظروفه السياسية، أما الدراسة النصية فتبحث في تكرار عبارة {على قدر}، والعلاقة الاشتقاقية بين {العزم والعزائم} و{الكرام والمكارم}، والتوازي بين الشطرين، وما أحدثه من قوة موسيقية ودلالية.

الاتجاه الخاص الذي هو أقرب إلى الأدبية : الشكلانية الروسية

أسهمت الشكلانية الروسية في نقل مركز الاهتمام من الأديب والظروف المحيطة به إلى النص وطريقة بنائه. ونظر الشكلانيون إلى النص بوصفه بناءً لغوياً وفنياً، ورأوا أن مهمة الناقد هي الكشف عن الخصائص التي تجعل الكلام أدباً.

وانطلقوا من سؤال أساسي: ما الذي يجعل النص الأدبي أدبياً؟ فاللغة مشتركة بين الاستعمال اليومي والعمل الأدبي، لكن الأديب يعيد تشكيلها بواسطة الاختيار والترتيب والتصوير والإيقاع، فتكتسب قيمة فنية وتأثيرية.

الأدبية عند رومان ياكبسون

ترتبط الأدبية عند الناقد واللغوي رومان ياكبسون بفكرة أساسية، هي أن موضوع علم الأدب ليس الأدب بوصفه مجموعة من المؤلفات فقط، وإنما الأدبية؛ أي الخصائص التي تجعل عملاً معيناً عملاً أدبياً.

وقد نقلت هذه الفكرة اهتمام الباحث من سؤال: هل هذا النص أدب؟ إلى سؤال: ما الذي جعل هذا النص أدبياً؟

وللإجابة عن هذا السؤال يدرس الباحث العناصر الداخلية للنص، ومنها اختيار الألفاظ، وبناء الجملة، والتقديم والتأخير، والتكرار، والصورة، والمجاز، والإيقاع، والتناسب بين الألفاظ والمعاني.

أما في أدبية النص القرآني نربط بين الوظيفة الجمالية ووظيفة الهداية

ويتضح ذلك في قوله تعالى:

{وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ} {التكوير: 17-18}.

تقوم الآيتان على التقابل بين الليل والصبح، والظلام والنور. ولم يقل النص: والليل إذا جاء والصبح إذا جاء، بل اختار لكل مشهد فعلاً خاصاً يصنع صورته وحركته.

فالفعل {عَسْعَسَ} يصور حركة الليل وإقباله أو إدباره، بينما يصور الفعل {تَنَفَّسَ} انبعاث ضوء الصبح تدريجياً. وتظهر الأدبية في دقة الاختيار اللغوي، والتقابل بين المشهدين، وانسجام الإيقاع، وطريقة بناء الصورة.

ويتضح ذلك في قوله تعالى:

واستعمل الفعل {عَسْعَسَ} بدلاً من «جاء» أو «أقبل» لعدة أسباب:

- يصوّر حركة الليل وانتشاره أو انحساره بصورة محسوسة.
- يحمل لفظه المكرر إيقاعاً يناسب امتداد الظلام وحركته الهادئة.
- يحتمل إقبال الليل وإدباره، فيمنح الصورة سعة دلالية.

- يمهد للانتقال من ظلام الليل إلى نور الصباح.
- يجعل القارئ يشاهد حركة الليل، بدل أن يتلقى خبراً مباشراً عن مجيئه.
- ثم قال تعالى: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، فاختار فعل «تَنَفَّسَ» ليصوّر ظهور ضوء الصبح وانتشاره تدريجياً. وفي التعبير تشخيص للصباح؛ إذ صُوّر كأنه كائن حي يخرج أنفاسه بهدوء بعد سكون الليل واختناقه. وهكذا يقابل انحسار الظلمة انبعاث النور.

وقد أقسم الله بالليل والصباح لعدة دلالات:

- لأنهما آيتان عظيمتان من آيات الله تدلان على قدرته وحكمته.
- لأن انتظام تعاقبهما يدل على دقة النظام الكوني الذي أقامه الله.
- لتنبيه الإنسان إلى ظواهر قد يعتادها فلا يتأمل دلالتها.
- لتهيئة النفس إلى تلقي جواب القسم، وهو تأكيد صدق الوحي في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾.
- لأن الانتقال من ظلام الليل إلى نور الصباح يتناسب مع أثر الوحي؛ فكما يكشف الصبح ظلمة الليل، يكشف الوحي ظلمات الجهل والضلال. وهذه مناسبة دلالية يستفاد منها السياق.
- ونستنتج أن الوظيفة الجمالية تظهر في التقابل بين الليل والصباح، ودقة اختيار الفعلين ﴿عَسَسَ﴾ و﴿تَنَفَّسَ﴾، وتشخيص الصباح، وانسجام الإيقاع، وتحويل الظاهرة الكونية إلى مشهد متحرك.
- أما وظيفة الهداية فتظهر في القسم قدرة الله في نظام الكون، والاستدلال به على قدرة الله وحكمته، فالقسم لا يقصد مجرد وصف الليل والصباح، وإنما يجعل منهما دليلاً يمهد لتأكيد حقيقة الرسالة.

وبذلك تتكامل الوظيفتان: تجذب الصورة الجمالية المتلقي وتوقظ إحساسه، ثم تقوده وظيفة الهداية إلى التأمل والإيمان والتصديق بالوحي. فالجمال في النص

القرآني ليس غاية منفصلة، بل طريق إلى ترسيخ المعنى الديني في العقل والقلب.

الفرق بين مصطلح الأدبية والمصطلحات الأخرى

1 - الفرق بين الأدب والأدبية

الأدب هو النص أو النتاج اللغوي القائم على التعبير الفني الجميل المؤثر، أما الأدبية فهي مجموعة الخصائص التي منحت ذلك النص جماله وتأثيره وتميزه. فالقصيدة مثلاً تُعدّ أدباً، أما ما تشتمل عليه من صور وتراكيب وإيقاع وانزياح وتخيل فيمثل أدبيتها. وبذلك يكون الأدب هو العمل اللغوي نفسه، وتكون الأدبية هي الطاقة الفنية والجمالية الكامنة فيه.

وعند تطبيق هذا المفهوم على القرآن الكريم، لا نصف القرآن بأنه عمل أدبي بشري؛ لأنه كلام الله تعالى، وإنما ندرس أدبيته، أي خصائصه البيانية والفنية والجمالية التي تكشف تفرد، وتساعد على فهم تأثيره وإعجازه.

2 - الفرق بين أدبية النص والتحليل الأدبي

أدبية النص والتحليل الأدبي ليسا شيئاً واحداً؛ فأدبية النص هي الخصائص الفنية الموجودة في النص نفسه، مثل دقة اختيار الألفاظ، وجمال الصور، وانسجام الإيقاع، وترابط التراكيب، وقوة التأثير.

أما التحليل الأدبي فهو العمل الذي يقوم به الباحث للكشف عن هذه الخصائص وتفسيرها وبيان وظائفها. فالأدبية موجودة في النص، والتحليل الأدبي هو المنهج الذي يُستعمل للوصول إليها.

فعندما نقول إن قوله تعالى: {وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا} {مريم: 4} يقوم على صورة استعارية، وإن الفعل {اشْتَعَلَ} يصور انتشار الشيب واستيلاءه على الرأس، فإننا نمارس التحليل الأدبي. أما الاستعارة والصورة والإيحاء والتأثير الموجودة في التعبير نفسه، فهي من مظاهر أدبيته.

3 - الفرق بين الأدبية ومفهوم النظم

ملاحظة لن اكرر مصطلح الأدبية لأنه مذكور أعلاه مطلوب من الطالب الربط بينهما ومعرفة الفرق

النظم عند عبد القاهر الجرجاني {ت 471هـ} لا يعني مجرد ترتيب الكلمات بعضها بجانب بعض، وإنما يعني تعليق الكلمات بعضها ببعض على وفق معاني النحو.

فالمتكلم يرتب ألفاظه بحسب العلاقات المعنوية التي يريد أداءها، فيختار التقديم أو التأخير، والذكر أو الحذف، والتعريف أو التنكير، والفصل أو الوصل، وفقاً لما يقتضيه المعنى.

والكلمة قد تكون مألوفة في ذاتها، لكن وضعها في تركيب مخصوص يمنحها قوة ودلالة جديدة. لذلك لا يُفسر إعجاز القرآن بالبحث عن جمال الكلمات منفردة، وإنما بدراسة انتظام الكلمات في الجملة، وانتظام الجمل في الآية، وانتظام الآيات في السورة.

ويتضح ذلك في قوله تعالى:

{وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا} {مريم: 4}.

فلم يقل: اشتعل شيب الرأس، أو: انتشر الشيب في رأسي، وإنما أسند الاشتعال إلى الرأس، ثم أتى بكلمة {شَيْبًا} تمييزاً، فصوّر الرأس كأن الشيب قد انتشر فيه انتشار النار واستولى عليه. ومن ثم لم ينشأ جمال التعبير من كلمة {اشْتَعَلَ} وحدها، وإنما من نظمها وعلاقتها بكلمتي {الرَّأْسُ} و{شَيْبًا}.

4 - الفرق بين مفهوم الأدبية ومفهوم البلاغة

البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته؛ أي أن يكون التعبير واضحاً وسليماً وجميلاً، وأن يلائم المقام والمتلقي والغاية المراد تحقيقها.

ولا تقوم البلاغة على كثرة الزخارف والمحسنات، وإنما على أداء المعنى بأدق صورة وأقواها تأثيراً. فقد تتحقق البلاغة بالإيجاز أو التفصيل، وبالذكر أو الحذف، وبالتكرار أو التقديم والتأخير، بحسب ما يقتضيه المقام.

وبلاغة القرآنية بلاغة وظيفية؛ لأن كل وسيلة تعبيرية تؤدي وظيفة دلالية ونفسية في السياق. فقد يخرج الاستفهام من طلب الجواب إلى التقرير أو الإنكار، وقد يخرج الأمر إلى النصيح أو التهديد، وقد يفيد التكرار التوكيد أو التذكير، وقد يدل التقديم على الاختصاص أو العناية.

وعند تحليل بلاغة الآية لا يكفي تحديد ما فيها من تشبيه أو استعارة أو كناية، بل يجب بيان سبب اختيار هذه الصورة، ووظيفتها في السياق، وعلاقتها بمعنى الآية ومقصدها وتأثيرها في المتلقي.

وعند تحليل بلاغة التعبير القرآني ينبغي بيان الأثر الذي أحدثته الصورة في المتلقي، والتساؤل عما إذا كانت كلمة أخرى تستطيع أداء المعنى نفسه بالقوة والدقة نفسيهما

5 - الفرق بين مفهوم الأدبية ومفهوم الإعجاز القرآني

الإعجاز القرآني هو عجز البشر عن الإتيان بمثل القرآن الكريم، مع وجود الدافع إلى معارضته وتوافر القدرة اللغوية لدى العرب الذين نزل في عصرهم. وقد تحداهم القرآن أن يأتوا بمثله، ثم بعشر سور، ثم بسورة واحدة، فعجزوا عن ذلك.

وللإعجاز القرآني جوانب متعددة، منها: الإعجاز البياني، والتشريعي، والغبي، والتربوي، والنفسي. ويُعدّ الإعجاز البياني من أبرز هذه الجوانب؛ لأنه واجه العرب الأوائل في ميدان تميزهم، وهو الفصاحة والبيان.

ولا يقتصر الإعجاز البياني على وجود التشبيهات والاستعارات والمحسنات؛ لأنها موجودة في كلام البشر أيضاً، وإنما يتمثل في بلوغ القرآن درجة متفردة في

اختيار الألفاظ، ونظم التراكيب، وتصوير المعاني، واتساق الآيات، وقوة التأثير، بحيث يعجز البشر عن الإتيان بمثله.

6 - الفرق بين الأدبية والشعرية

الأدبية ليست مرادفة للشعرية: تختلف العلاقة بين الأدبية والشعرية بحسب استعمال النقاد للمصطلحين.

الأدبية هي الصفة أو مجموعة الخصائص الموجودة في النص، والتي تجعله نصاً أدبياً وتميزه من الكلام الاعتيادي، مثل الصورة، والإيقاع، والانزياح، والتكرار، وحسن النظم.

أما الشعرية {Poetics} فهي العلم أو النظرية التي تدرس هذه الخصائص، وتفسر كيفية إسهامها في صناعة أدبية النص. ولا تقتصر الشعرية على دراسة الشعر، بل تشمل أيضاً القصة والرواية والنثر الفني.

وبذلك تكون العلاقة بينهما على النحو الآتي:

الأدبية هي موضوع الدراسة والصفة الفنية الموجودة في النص.

الشعرية هي العلم الذي يدرس هذه الصفة ويكشف قوانينها وطرائق تشكلها. ويتضح ذلك في قولنا:

ابتسم الصباح، واستيقظت الطرقات.

تتمثل الأدبية في تشخيص الصباح والطرقات، وفي نقل اللغة من التعبير المباشر إلى التصوير الفني. أما الشعرية فتتمثل في تحليل هذه الوسائل، وبيان كيفية إنتاجها للجمال والتأثير.

ولذلك لا يصح القول بإطلاق إن الشعرية أعم من الأدبية؛ لأنهما ليسا درجتين من الشيء نفسه، بل الأدبية صفة وموضوع، والشعرية علم ودراسة.

غير أن بعض الباحثين يستعملون مصطلح الشعرية بمعنى الخصائص الفنية الموجودة في النص، فتصبح الشعرية في هذا الاستعمال قريبة من الأدبية أو

مرادفة لها. ويمكن عندئذ القول إن الشعرية أوسع من الشعر؛ لأنها لا تقتصر على النص الشعري، بل تشمل أدبية الشعر والنثر، لكنها ليست بالضرورة أوسع من الأدبية.

وعلى ذلك فالصياغة الدقيقة هي: الشعرية أعم من الشعر، وليست أعم من الأدبية؛ لأن الأدبية هي ما يجعل النص أدبيًا، والشعرية هي دراسة الخصائص التي جعلته كذلك.

وقد تداخلت دلالة الشعرية مع الأدبية في كثير من الدراسات الحديثة؛ فقد ارتبطت الشعرية أولاً بالشعر، ثم اتسع مفهومها عند بعض النقاد ليشمل دراسة القوانين والخصائص التي تجعل الخطاب أدبيًا.

ومن ثم لا ينبغي فهم الشعرية على أنها تعني نظم الشعر وحده؛ لأنها تبحث في الخصائص التي تجعل النص مختلفًا عن الكلام اليومي، وتمنحه قيمته الفنية. ولهذا اقترب مفهوم الشعرية من مفهوم الأدبية، من غير أن يتحقق التطابق الكامل بينهما في جميع المناهج النقدية.

وعند دراسة القرآن الكريم لا نقول إن القرآن شعر؛ لأن الله تعالى نفى عنه ذلك بقوله:

{وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ} {يس: 69}.

ولكن يمكن دراسة الخصائص الفنية والبيانية والجمالية في الخطاب القرآني، مثل النظم، والتصوير، والإيقاع، والمجاز، والتكرار، والتقديم والتأخير، والتناسب بين الألفاظ والمعاني. ولذلك يكون الحديث عن أدبية النص القرآني أدق من وصف القرآن بأنه نص شعري.

عدم استخدام مصطلح شعرية النص القرآني

لا تعني شعرية النص أن القرآن الكريم شعر؛ فالقرآن نفى عن نفسه صفة الشعر، وإنما تعني دراسة الكيفية الفنية التي ارتفعت بها لغته عن التعبير المباشر، وأنتجت جمالها ودلالاتها وتأثيرها الخاص.

وتظهر شعرية قوله تعالى:

{وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ} {النمل: 88}.

في تحويل المعنى العقلي، وهو حركة الجبال، إلى مشهد بصري حي؛ فالمتلقي لا يستقبل معلومة فحسب، بل يرى الجبال، ويظنها ثابتة، ثم يكتشف أنها تمر كالسحاب.

كما تظهر الشعرية في الجمع بين المتناقضات والمتباعدات، مثل ضخامة الجبال وخفة السحاب، والجمود والحركة، والظن والحقيقة. وقد وسّع هذا الجمع دلالة الآية، وجعل صورتها قابلة للتأمل.

وتتحقق شعرية النص كذلك في الإيقاع الصوتي في قوله تعالى: {جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ}؛ إذ يؤكد التكرار الاشتقاقي بين {تَمُرُّ} و{مَرَّ} معنى الحركة، ويجعل اللفظ وإيقاعه مشاركين في تصويرها.

وتتجلى الشعرية أيضاً في انتقال الآية من المشهد المحسوس إلى المعنى العقدي والأخلاقي:

{مَرَّ السَّحَابِ}: يصور حركة الجبال.

{صُنِعَ اللَّهُ}: يربط المشهد بقدرة الله تعالى.

{أَتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ}: يكشف الحكمة والإتقان.

{إِنَّهُ حَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ}: يوجه الإنسان إلى مراقبة أعماله والاستعداد للحساب.

وبذلك تكون شعرية النص هي الكيفية الفنية التي انتظمت بها الألفاظ والصور والإيقاعات والتقابلات، فتحول خبر حركة الجبال إلى تجربة تصويرية وعقدية ونفسية مؤثرة.

الفرق بين الجوانب الستة في دراسة الآية

التفسير العام يبين المعنى الأساسي للآية، وهو أن الجبال تتحرك يوم القيامة كما يتحرك السحاب.

التفسير الموضوعي يربط الآية بموضوعات البعث، وتغير نظام الكون، وقدرة الله، ومحاسبة الإنسان.

التفسير البلاغي يدرس التشبيه، والتضاد، والجملة الحالية، والإيجاز، واختيار الألفاظ، ووظيفة كل وسيلة تعبيرية.

أدبية النص هي الخصائص الجمالية والتأثيرية المتحققة في صياغة الآية نفسها. شكلانية النص تحلل بناء الآية الداخلي والعلاقات التي تنظم عناصرها، ولا سيما العلاقة بين الجمود والحركة، والظن والحقيقة. شعرية النص تدرس الوسائل والقوانين الفنية التي أنتجت أدبية الآية، وحولت المعنى إلى مشهد حي متعدد الدلالات.

الدراسة التطبيقية

تطبيق على قوله تعالى: {وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا}

قال تعالى على لسان زكريّا عليه السلام:

{قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا} {مريم: 4}.

استعمل الفعل {اشْتَعَلَ} في أصله للنار، ثم نُقل إلى الشيب، فصُوّر انتشاره في الرأس بصورة النار التي تنتشر في الهشيم. وبذلك تحوّل المعنى من مجرد الإخبار عن الشيب إلى صورة حية تكشف انتشاره وشموله.

ولم يقل زكريّا عليه السلام: شاب رأسي؛ لأن هذا التعبير يؤدي أصل المعنى، لكنه لا يصور قوة انتشار الشيب واستيلاءه على الرأس. أما قوله تعالى: {وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا} فقد جمع بين الإخبار والتصوير والتأثير.

وأُسند الاشتعال إلى {الرأس} كله، مع أن الشيب يظهر في الشعر، ليفيد الشمول والمبالغة، وكأن بياض الشيب قد استولى على الرأس كله.

وجاءت كلمة {شَيْبًا} تمييزاً يفسر نوع الاشتعال؛ فعندما يسمع المتلقي قوله: {وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ} يتشوق إلى معرفة نوع هذا الاشتعال، ثم تأتي كلمة {شَيْبًا} لتكشف المعنى وتكمل الصورة. وبذلك يشترك الترتيب النحوي والتصوير البياني في إنتاج الدلالة.

كما تظهر المناسبة بين قوله تعالى: {وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي} وقوله: {وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا}؛ فالوهن يمثل الضعف الباطن الذي أصاب العظم، والشيب يمثل العلامة الظاهرة على الكبر. وهكذا جمع التعبير بين الدليل الداخلي والدليل الخارجي على الشيخوخة.

وتتجلى الأدبية في اختيار الفعل، وبناء الصورة، وترتيب الكلمات، والإيجاز، والإيقاع، والتناسب بين الجمل. ويكشف التحليل الأدبي هذه الخصائص ووظائفها، ويظهر النظم في العلاقات بين الكلمات، وتظهر البلاغة في ملاءمة الصورة لمقام الدعاء وإظهار الضعف، ويتجلى الإعجاز في اجتماع معانٍ كثيرة داخل تركيب موجز بالغ الدقة والتأثير.